في العاطفة القومية

محجوب بن ميلاد

سأبحث في هذا المقال في امر العاطفة القومية وفي امر تزكيتها في الدول الجديدة التي كافحت ــ مرّ الكفاح احيانا ــ قبل ان تسترجع مقاليد امورها وحرية الانفاس .

ولست تبالغ في شيء ان انت أكدت ان تزكية العاطفة القومية ــ كتزكية اختها الدينية ــ جزء هام من تزكية العقول او بنائها، وتتطلب من الراغب في العطف عليها نظرة فلسفية اصيلة تشمل جميع جوانب الحياة البشرية على الاطلاق . وان انت أكدت ان تزكية العاطفة القومية او بناءها جزء هام من تزكية العقول او بنائها ، فالمهم ان تنتبه لضرورة تحديد مكانة هذا الجزء من الكل ، او لضرورة تحديد النسبة التي بين هذا الجزء وهذا الكل .

وبدهي ان العدل يقضي بأن تعطي ذلك الجزء حقه كاملاً لا منقوصاً ولا مزيداً فيه. فلا غيرتك على الكل تحملك على الاجحاف بالجزء، ولا غيرتك على الجزء تنتهي بك الى الجور على الكل. وان انت تجاوزت البداهة ولم تقنع بها اكدت لك ان سلامة العقول لا تتم الا بزكاة العاطفة القومية ، مثلما ان سلامة العاطفة القومية لا تتم الا بزكاة العقول ، نظراً لما بين الجزء والكل من الانسجام المكين . وطغيان العاطفة القومية على العقول تجنيس لها وتجنيس للعقول . وانتفاؤها من العقول انتحار لها ومسخ للعقول . فالضدّان هنا يجتمعان بأوثق مايكون الجمع ، من حيث ان الافراط والتفريط كليهما ذميان .

فما قولك مثلاً في السمفونية العبقرية لو طغت عليها ، دفعة واحدة ، آلة من آلاتها لحيادها عن دورها الحقيقي في نطاق السمفونية ؟ او ما قولك في السمفونية لو خانتها اثناء العزف بعض آلاتها الجوهرية فلم تسمع رناتها الى جنب رنات اخواتها ولم تنسجم معها على نحو ما كان مقدراً ان تنسجم معها في نطاق العزف الشامل ؟

فالعاطفة القومية ، في عرف اصطلاح علماء النفس المحدثين ، من العواطف المركّبة . معنى ذلك انها مزيج سحري من المشاعر : بناؤها صعب عزيز المنال ، وفي حاجة الى هندسة دقيقة الاسرار والاصول ، نادرة الوجود . ويجب عليك ان تخوض من القضايا الشاملة غماراً وغماراً قبل ان تهتدي الى الكشف عن اسرارها واصولها الجوهرية . فهذه أصول نفسية او عقلية ، وهذه اصول خلقية، وهذه اجتماعية ، وهذه تاريخية ، وسياسية ، ومذهبية ، وثقافية ، وحضارية ، وانسانية على الاطلاق . وان انت اهتديت الى جميع تلك الاصول كان لا بدّ لك من الالتجاء الى كل الوسائل والمناهج التربوية والفنية الدقيقة حتى تراعى في الاسرة وفي المدرسة وفي المجتمع ، ان انت رمت بناء عاطفة قومية صادقة نيّرة .

والذي يجب ان تنتبه اليه هو انك لن تنتهي الى تزكية العاطفة القومية او الى بنائها فتكون على ما ترغب فيه لها من الحرارة والصدق والنور ، ما لم تغذّ النفوس التي تريدها مضطرمة بضرامها بما يجب ان تغذّى به من معارف معينة وحقائق معينة وفنون معينة ، فتنشأ على ما يجب ان تنشأ عليه من القابلية للاهتزاز القوي المنغم العادل امام كل ما يجب ان تهتز له النفوس الحرة الشاعرة بجسام مسؤوليات الحرية على الاطلاق .

العاطفة القومية ليست مجرد الاحساس بالانتماء الى قوم او مجرد الغيرة على اولئك القوم او على شؤونهم . فهذا الى العصبية القبلية اقرب منه الى العاطفة القومية النيرة . بدليل تشعب البحوث في حقها باجواء الفكر الغربي : فهذا يجعل المرجع في شؤونها الى اساس الجنس ، وهذا الى اساس اللغة ، وهذا اساس الدين ، وهذا الى اساس وحدة المصالح ، وهذا الى اساس وحدة العوامل والحدود الجغرافية ، وهذا الى اساس وحدة المصير والى ما تشمله وحدةالمصير ، من وحدة الآلام والمحن ووحدة في الانتصارات والامجاد ووحدة في الاشواق والمثل ووحدة في الرغبة في العيش في كنف تلك المثل.

ففي الرحاب الفسيحة الارجاء ، التي هي رحاب العاطفة القومية النيرة المتفتحة ، تنسجم ابدع الانسجام جميع العواطف التي نسميها عواطف الحرية : فمن شعور باستقلال الذات ، الى شعور بحرمة الذات وبخصائصها الجوهرية ، الى شعور بضرورة الدفاع عن الذات ، الى شعور بضرورة تزكية الذات في نطاق الصدق وصفاء النظرة والحرص على العزائم العظيمة والمشاريع الخلاقة ، الى شعور عارم مكين بالتضامن العجيب الذي يربط

بين الفرد المستقل والطبيعة والكون بأسره .

وأدقّ الصعوبات التي يرتطم فيها الراغب في تزكية العاطفة القومية انما هي صعوبة الاهتداء الى الطريقة الكفيلة بأن تحمل الفرد الشاعر باستقلاله الفردي ، او المتوهم الاستقلال والميال جبلةً الى الانطواء في حدود ذاته الفردية وحدود انانيته الضيقة ، على الكشف عما يربط بالفعل والحقيقة بينه وبين الكائنات على اختلافها من ضروب التضامن. فالعاطفة القومية لاتقوى ولا تستقر في ذاته ولا تزّكّى ولا تستنير الا اذا ما فزت باخراج الفرد من مستواه الحيواني الطبيعي ، فحملته على ان يعرج الى مستوى البشرية العاقلة الرافّة اخلاصاً للمثل العليا البشرية . وليس يمكن ان تفوز بهذا الا اذا ما فاز هو بالكشف عن تلك الروابط ، والشعور بحقيقتها ، والشعور بان ذاته لا تزداد الا قوة ونمواً وتفتحاً وسعة ارجاء كلما تحررت من الانانية الحيوانية الضيقة الأفق واتسعت اجواؤها شيئاً فشيئاً الى ان اصبحت تسع الكون بأسره .

ولو انك اردت ان ترمز لتفتّح ذاته لما كان في امكانك ان تجد رمزاً اصدق ولا ابين من دوائر داخل بعضها ذات مركز واحد . فكل فرد يشعر بأنه المركز الذي يجب ان تضاف اليه كل الاشياء في حالة انانيته الاولية . فهو سجين الانانية ، وتحريره لايتم الا تدريجياً وباكتشافه شيئاً فشيئاً مايربط بينه وبين الكائنات من مختلف الروابط ، روابط التضامن الشامل للبشرية كافة بين امسها وغدها : فهذا تضامن الافراد داخل الاسرة ، وهذا تضامن الافراد داخل المهنة ، وهذا تضامن الافراد وتضامن الاجيال داخل المجتمع القومي ، وهذا تضامن الافراد والشعوب داخل البشرية جمعاء في زحفها الدائب المتصل نحو مزيد من القوة ومزيد من الاقتدار ومزيد من سعة الافق ومزيد من النور .

والفرد الذي ينتهي الى مثل هذه القمم من التفتح العجيب للعالم بأسره ، يصبح أشدّ شعوراً بالروابط الخفية العنكبوتية التي تربط بينه وبين الكائنات بأسرها في نطاق تلك الدوائر التي فتح معانيها وقيمها ، الدائرة بعد الدائرة . مثلما يصبح اشدّ شعوراً بذات الكنز الخفي الذي هو كنز ذاته الحية ، فتنفجر شآبيب جودها الاصيل سواء اكانت من شآبيب الجمال او من شآبيب الخير او من شآبيب الحق . وليس يمكن ان تجد في التاريخ بطلاً من الابطال ، ولا حكيماً من الحكماء ، ولا قديساً من القديسين ، ولا مواطناً صالحاً من المواطنين الصالحين ، الا كان نمطاً فريداً ممتازاً في نطاق اسلوب هو اسلوبه ، من ذلك

الفرد المتطور هذا التطور الناموسي الكامل .

وأخص خصائص تلك النماذج الفريدة من البشرية الممتازة انما هي في كون العاطفة القومية سمت لديهم الى أعلى درجاتها فاستحال نسيجها الى حرير هو انفس حرير . ناهيك انه انتهى الى التوفيق العجيب بين مقتضيات الذات الفردية ومقتضيات الذات الجماعية او القومية ومقتضيات البشرية على الاطلاق . فكان آية ساطعة من آيات الخلق الرباني : اشعاعها هو الاشعاع ومفعول قولها او فعلها او انجازها مهما يكن جنسه هو السحر الخلاق الذي يلهب النفوس ، فيدعوها الدعوة الملحة الى انتهاج سبل التفاني وراء تحقيق انبل المثل ، فتكسر بفضل ذلك سدوداً وتفتح للبشرية آفاقاً جديدة .

ولعل كتاب طاغور « الدار والعالم » اروع آية فنية كتبت في عالمنا المعاصر في ذات المشكل الجوهري الذي هو مشكل العاطفة القومية في انجذابها ابداً الى قطبين متناقضين في الظاهر : هما قطب الانحصار في الذات القومية الضيقة الدار ، وقطب التفتح الى افسح ارجاء البشرية الشاملة : العالم . وانك لتخطىء فهم الكتاب ان انت ظننت انه يجب علينا في نطاق العاطفة القومية ان نختار بين هذين القطبين : فحيوية العاطفة القومية الخلاقة هي في توترها الحي الاليم ـ توتر وتر القوس المشدود ـ بين ذينك القطبين كليهما : لا هذا يذهلها عن ذاك ولا ذاك يذهلها عن هذا . والمهم ان تنتبه الى ان حياد العاطفة القومية الحق عن صارم سنن ذلك التوتر الحي لسبب من الاسباب من شأنه ان يجعل تلك العاطفة عرضة لشتى الامراض والانحرافات التي تتاخم الامراض العقلية . وليس يمكن ان تنتشر في مجتمع ما تلك الانحرافات التي تنخر العاطفة القومية من دون ان تعرضه لضروب من الاخطار : اركانه تتصدع ، ولحمته تتفتت ، وقيمه ومعانيه تنطمس معالمها او يعروها الكسوف الجزئي او الكلي ، ويصبح المجتمع يترصده افلاس الحقيقة مثلما يترصده الغزو والمحق .

ولما كانت القضية التي نحن بصددها على هذا الجانب العظيم من الخطورة بالنسبة للافراد وبالنسبة للجماعات في الحين ذاته ، وجب ان نشير الى الضربين المتقابلين اللذين يقضيان على التوتر الحي الذي هو توتر العاطفة القومية الحق ، فيكونان سبب مسخها او نضوبها او تلاشيها . ويتجسم هذان الضربان في جمود العاطفة على «قطب الدار» او جمودها على « قطب العالم » ، على حد اصطلاح طاغور .

فجمود العاطفة القومية على « قطب الدار » يُنضب معينها او يجنّسها ابشع تجنيس ، فتستحيل عصبية ظلامية من جنس العصبية القبلية الجاهلية ، فتضحي جبرية قهارة تختنق في جوها النفوس او تتعفن، فتهوي من عليائها الانسانية الى حضيض الغريزة ونزواتها واهوائها وفقرها المدقع . مثل هذه العصبية القومية عجزها هو العجز في ميادين الخير، وصولتها هي الصولة في ميادين الهدم والشر ، وهي العقم المريع .

اما جمود العاطفة القومية على « قطب العالم » بدعوى التفتح لأوسع الارجاء فهو انخلاع عن شروط الذات وعن خصائص الذات ، وهو كفر بنواميس الحياة . ذلك انه مطلق الذهول عما يمكن ان نسميه « مبدأ التقمّص » . فلئن كان الروح لابد من ان يتقمص في بدن ، فكذلك الفرد – جسما وروحا – لا بد ان يتقمص في حقيقة جماعية منهـا يستمد الغذاء وبعض الخصائص . فلا عجب اذاً ان ترى جمود العاطفة على « قطب العالم » لا يعتم ان يفقدها عصب الحياة ، فتستحيل احلاماً وخيالات واوهاماً متبخرة وعجزاً وفراراً من كل المسؤوليات .

وان انت وقفت امام هذين الاصلين الجوهريين ، اللذين همـا اصل كل انحراف او مرض يعرو العاطفة القومية بالدول الجديدة ، فتتبعت فروعها العديدة ومظاهرهما المتنوعة وعواقبهما التي لاتحصى عدّا ، ادركت ان ما تشكوه الدول الجديدة من مختلف الادواء في الميدان القومي وفي مستوى العاطفة القومية ليس ناجماً الا عن ذينك الاصلين . فما اكثر ما تطالعك العاطفة القومية من وراء اقنعة الديماغوجيا وظلمة العصبية الجارفة التي لا تعرف لسنن الواقع معنى او وزنا لفقدانها الحاسة التي تسمى بحاسة البصر بشؤون الواقـع . وما اكثر ما تجد الى جنب ذلك الانتهازيين او الوصوليين على اختلاف كتائبهم يستغلون القومية ويتطفلون عليها، ولا رغبة لهم من وراء ذلك الا اشباع مطامعهم الفردية الاشعبية ونزوات الانانية الجامحة . وما اكثر ما تجد الى جنب هذا وذاك الفاقدين كل احساس قومي صحيح او غير صحيح ، فتراهم منطوين على ذواتهم ، متهاونين بكل واجب وكل مسؤولية .

ولا تسل على الاغلبية الساحقة ممن تراهم اقرب الى الحياة الغريزية الحيوانية منهم الى الحياة البشرية ، لكونهم فريسة المرض والعري والفقر المدقع والعادات والتقاليد والخرافات التي لا توصف لتحدّيها كل وصف . وان انت ابيت الا ان تجد لهم نعتاً او وصفـاً ؛ فلست واجداً عبارة اصدق من قولك عنهم انهم « اهل الكهف »: ناموا دهوراً في كهفهم

في معزل مطلق عن تطورات الدنيا ، ثم ابت صروف الزمان الا ان تجرفهم الى عهدنا هذا ـ على حالهم القديمة ـ فلا هم من هذا العهد ولا هذا العهد منهم . هم « الهبـاء من الافراد » : فلا هم يحسون بان ذواتهم تتجاوز ذواتهم الى ذات جماعية شاملة، ولا الذات الجماعية الشاملة تتمتـع بوحدتها الغضوية من حيث هي ذات جماعية شاملة . شأن ذلك « الهباء» المنثور شأن بعض الجزر المشتتة هنا او هناك بالمحيط ، في شهادتها على انها كانت جزءاً من قارة مترامية الاطراف وزلزلت زلزالها فغمرتها مياه المحيط !

وان انت حصرت النظر في الاقطار العربية دون بقية الاقطار المتخلفة وجب عليك ان تذكر اي انحطاط عقلي ومادي كان انحطاطها في القرون الاخيرة . فتجرأ عليها الغزاة من كل جانب ، واضحت مستعمرات للمستعمرين على اختلافهم . وبقي شأنها هذا الشأن عقوداً متوالية تجاوزت عقود القرن بالنسبة لبعضها .ولم تسترجع مقاليد امورها الا بفضل كفاح مرير اضطلع باعباءه المرهقة قلة من الافراد ممن حظوا في نطاق احتكاكهم بالغرب والغربيين بالعروج الى مستوى العقول المبنية محكم البناء. فهؤلاء امكن لهم تنظيم صفوف الجماهير في نطاق ما لم تعرفه من قبل من عمل جماعي منظم صبور ذي اهداف معينة مرسومة، وامكن لهم ان يضطلعوا بأعباء ضروب من الكفاح الصامد وراء المطالبة بحقوق الذات وشرف الذات واستقلال الذات، في نطاق فلسفة واعية بأهدافها ومبادئها وطرقها الناجعة في الكفاح. وانما امكن لهم ذلك لأنهم كانوا الضمائر الحية التي تعرف المسؤولية البشرية ووزنها وعظمتها وبرها ، وتدرك معاني الجهد والصبر على المكاره، ولا تتردد في خوض اقسى المغامرات والتضحيات لعجزها عن كل شيء الا عن القيام بمرهق الواجبات !

أليس معنى هذا ان اصحاب تلك الضمائر الحية الذين لم يتقيدوا الا بقيود مقتضيات الضمائر الحية يجب عليهم اليوم بعد ان خرجوا مظفرين من معركة الاستقلال ان يخوضوا معارك اخرى هي المقصودة بالذات من وراء كفاحهم الاول ؟ وهي معارك الرهان فيها من باب الخلق ، ناهيك انها ترمي الى اعادة الروح السليب الى مجتمعاتها المهشمة من جميع النواحي المادية والخلقية والروحية .

وهنا تدرك خطورة هذه القضية : كيف تزكّى العاطفة القومية او الروح القومي حتى يمكن لكل فرد ان يشارك مشاركة الضمير الحي في حياة المجتمع الجديد ، فتطرد وظائفه

على اختلافها في نطاق مايتطلبه العصر الذري من عزة الذات وضمان البقاء في نطاق عزة الذات . واصحاب الضمائر الجديدة في الدول الجديدة يدركون ان هذه المعارك الجديدة التي يجب عليهم خوضها ، معارك حياة او موت بالضبط والتمام !

ولما كانت القضية مترامية الاطراف ، فلا بد من حصرها في بعض النقاط الجوهرية التي نعتبرها الشروط الاساسية لنجوم عاطفة قومية سالمة شاملة في الدول الجديدة .

النقطة الاولى : الشعور الحاد العنيف من قبل القادة المسؤولين بأنهم ماتقلدوا مقاليد الامور الا ليقبلوا على عملية جراحية هائلة ، مرهفة لهم ارهافها للمجتمع العليل الواجبة معالجته ، وتتطلب منهم من الصدق ومن الحزم ومن الخبرة الدقيقة بالمسائل اشكالا والوانا . وهي عملية معقدة ما امكن التعقيد ، ومشحونة بالقضايا والمعطيات المتناقضة ، ويحفّ بها من الافخاخ والاخطار صنوف لاتحصى عدّا . وهي عملية ترمي ، اولاً ، الى ترميم المجتمع من جميع النواحي المادية ، الفلاحية والصناعية والفنية والتجارية والمالية ، حتى يمكن استغلال جميع الثروات الطبيعية وتحسين نظام المعيشة للعباد في نطاق القدر الادنى الذي يتفق والعدالة الاجتماعية والحرمة البشرية . وترمي ، ثانياً ، الى ترميم النفوس القديمة ، حتى يمكن لها الانسجام بعض الشيء مع مقتضيات العهد الجديد . وترمي ، ثالثاً وبالخصوص ، الى بناء نفوس النشء الجديد جديد البناء ، حتى يمكن استغلال الثروات الانسانية استغلالنا الثروات المادية ، اعني الى اقصى الحدود .

النقطة الثانية : الشعور الحاد العنيف من قبل القادة المسؤولين بان امكانيات المجتمع الجديد محدودة من الناحية المادية ، اعني المالية والفنية ، ومن الناحية الانسانية ، اعني من حيث عدد النخبة العصرية من ابناء المجتمع الجديد ممن حظوا بثقافة عصرية تمكنهم من الاضطلاع بالمهام الجديدة في سبل ترميم المجتمع من الناحية المادية اولاً ، ومن ناحية ترميم النفوس القديمة ثانياً ، ومن ناحية بناء العقول الجديدة ثالثاً . وهو شعور ثمرته ضرورة استغلال جميع الامكانيات الموجودة في نطاق الاقتصاد الحكيم وضرورة اجتناب كل تبذير . ثمرته بالخصوص ضرورة معرفة ما يجب تقديم معرفته من الامور على غيره للفوز بأنجع النتائج في اقصر الآماد . وفي هذا من المتناقضات اشكال ، سيما واذا ما اعتبرت

وزن الاهداف المادية او الادبية المطلوبة لما بين وزن القيم ووزن الشؤون المـادية من التغاير المدهش .

النقطة الثالثة : الشعور الحاد العنيف من قبل القادة المسؤولين بضرورة تصفية حساب التراث العقلي الجماعي ، وخاصة في الميدان الديني ، لانقاذه مما تراكم عليه من شتى الاوهام الظلامية اثناء عصور الانحطاط ، حتى يمكن الربط الوثيق بين الماضي الحي ومقتضيات العقلية العصرية ، لقطع دابر كل ديماغوجيا وتوفير اسباب الاخلاص الحي للذات الحية المحدودة ، واستئناف السير في نطاق وحدة الذات التاريخية لا في نطاق مايعروها من ضروب التصدع . فالبناء بناء الوحدة ليس بالامر السهل في نطاق ماورثناه عن عهود افلاس الحقيقة وعن عهود الاستعمار من شتى الرسوم الدارسة والانقاض والاوضاع المادية والعقليـة النخرة . أليس يجب ان نقضي فترة من الزمن يمكن ان نسميها فترة معالجة الادواء على اختلافها وتضميد الجروح وتعزيز اركان الذات على اختلافها ؟

ومما يدل على خطورة القضية ، وعلى خطورة العقلية غير الواقعية التي تعالجها في غير ما انتباه لمتجدد الخيبات وفي غير ما اقامة وزن لكل الصعوبات الناجمة في الطريق ، انك لا تتعرض لذلك بالتلويح او بالتحليـل من دون ان تلصق بك شتى التهم ! وما درى المتهمون ان الدول العصرية ليست مجرد القبائل ذات النظام القبلي البسيط ، وانما هي تنهض على اجهزة فنية ومادية وعقلية وانسانية من اعز طراز ، وان بناءها مما يتطلب عقوداً من الجهود الفنية المتواصلة ممن بقوا دهوراً ـ وما زالوا ـ على ابشع احوال الانحطاط العقلي والمادي : وهل شأننا غير هذا الشأن ؟

النقطة الرابعة : ان انقلاباً عقلياً على هذا الجانب العظيم من الخطورة رهانه اجـل رهان : حياة او موت بالنسبة لملايين من البشر كافحوا تحت قيادة ابطالهم البررة جهم الكفاح لكسر ما كان يخنقهم من الجبرية القهارة ، جبرية الحكم الاجنبي ، فابلوا في ذلك البلاء الحسن المظفر . أفلا يجب على ابطالهم البررة ان يقودوهم الآن لخوض غمار كفاح جديد اثقل وطأة في سبيل تحريرهم من جبرية اقوى واعمق مدى واخطر مفعولا ، اعني الجبرية الباطنة التي تنخر النفوس والهمم بشتى الخرافات والاوهام والاحكام المتبخرة على وهج جحيم الواقع ؟ والقلة القليلة من اولئك الملايين تدرك انه يجب ان تخوض معركة اضخم واثقل من معركة التحرر من الاجنبي . وهي معركة اسميها معركة الثقة ، نواميسها ادق

والطف واصعب من نواميس المعارك المادية . وهي اعزّ الشروط التي تشترط لتزكيـة العاطفة القومية في صدق اضطرامها في عموم مواطني الدول الجديدة. ولا غرابة: فاقباسها اقباس الخلق في انصع آياته . فالهباء الساطع المنثور في افراد الامم المتخلفة لم يكن الهباء الا لأن النفوس فقدت كل ثقة وفقدت كل طمأنينة بما قاسته من الويلات والخيبـات والانكسارات طيلة الدهور تحت سطو الفقر والجوع والعري والجور والذلة والمهانة . وليس يمكن ان تلتهب فتصبح نفوساً آدمية لها نبل اندفاعات النفوس الآدمية ، الا اذا ما ارجعت لها الثقة والطمأنينة والايمان بطهر المقاصد وزكاة المشاريع من وراء عظيم العزائم الجماعية .

وبعض زعماء الشعوب المتخلفة يعرفون جيد المعرفة ما وجب عليهـم ان يدفعوه من باهظ الاثمان وما وجب عليهـم ان يبذلوه من مرهق المجهودات وما وجب عليهم ان يتحملوه من مرّ التضحيات قبل ان يفوزوا بتلك الثقة الغالية وباطمئنان الجماهير اليهم ، فامكن لهم ان يقودوها في ضروب من الكفاح تبدو لا حظّ لها في النجاح نظراً الى انهم تجرأوا على اعزّ الدول الغربية سطوة وجبروتاً . ومع ذلك فبمثل مافازوا به من الثقـة المطلقة من قبل جماهير كان ينخرها الوسواس و سوس الشك ، امكن لهم ان يفتحوا سبل الامكان امام ما كان يبدو مستحيلاً .

وهنا تدرك الوزن الحقيقي الذي هو وزن العناصر الادبية . فهي هي التي ترجع للنفوس قوتها وصمودها وثباتها وتفانيها وصولتها واصل جبروتها ؛ وهو جبروت يوهن الحديد واليه تطأطىء كل الرؤوس . أمن العجيب بعد هذا ان نؤكد ان تزكية العاطفة القوميـة وترسيخ قدمها في النفوس وتوجيهها لتحمل اعباء شتى المسؤوليات والواجبات والتضحيات على اختلافها ، ليس يمكن ان يتم ما لم يُقـم قادة الدول الجديدة الف دليل ودليلا على انهم اهل لمثل تلك الثقة بما يظهرون من الحرص على الاستقامة والنزاهة وظهر المقاصد والغيرة على المصالح الاجتماعية لتوفير اسباب العدالة الاجتماعية ؟ وانه ليكفي ان يخـامر الناس في ذلك ادنى شك في ظرف من الظروف او في لحظة من اللحظات لتنفجر انفجارات تحطم في ثوان مساعي عديد السنين . وليس من شك عندي في انه يمكن على ضوء هذه الاعتبارات ان تدرك حقيقة المعاني التي تلوّح اليها الكتب المنزلة عندما تؤكد انه يكفي ان يوجد في أمة عشرة من « الرجال العادلين » لينقذوها ممـا تشكوه من صنوف الشرور

ويبعثوها حية سالمة . وهو اصل اصيل مما سميته آنفاً « اصول ترميم النفوس » .

النقطة الخامسة : وتتعلق بجنس الجو السياسي الذي يجب ان يكتنف الاقطار المتخلفة اثناء فترة اعادة بنائها وبناء حقيقتها المادية والاجتماعية والانسانية . هذا العنصر الاساسي تعرضت له مراراً فيما سبق ، خلال تلك الشروط المرهقة التي اشترطتها على القادة المسؤولين عن مصائر الدول الجديدة ، فكلفتهم بما كلفتهم به من ضروب الشعور الحـــاد العنيف بشتى المقتضيات التي هي مقتضياتها الحاضرة ومقتضيات بعث شعوبها قوية سالمة . وانما كان الامر كذلك نظراً لجنس الوظيفة التي هي وظيفتهم الحقيقية في ميدان السياسة : فهم بناة ضمائر الافراد والجماعات قبل ان يكونوا بناة الهياكل المادية والاجتماعية ، او قل انه يستحيل عليهم ان يبنوا تلك الهياكل المادية الاجتماعية ان لم يستعينوا على ذلك ببناء الضمائر الفردية والجماعية ، وبالعكس . هذا في عرف المنطق هو «الدور» . الا ان اعادة بناء الامم المتخلفة رهن فوزهم بكسر هذا الدور . والى جنب هـــذا الدور ادوار اخرى عديدة . ولذلك اكـــدنا ان قضايا الاقطار المتخلفة ، وخاصة في ميدان تزكية العاطفة القومية ، مشحونة بالمتناقضات .

ولست في حاجة الى ان تكون فيلسوفاً سياسياً لتدرك ان تدريب العقول على مسؤوليات الحرية مما يقضي على المسؤولين ان يلازموا ضرباً مرهقاً من اليقظة والحزم والتفاني في سبل الاهداف النبيلة التي يسعون وراءها . فلا انت ترخّص لهم في ان يذهلوا لحظة عن تلك الاهداف ، ولا انت ترخّص لهم في ان يذهلوا عن خصائص العقول التي يجب عليهـــم تحوير اتجاهها جوهري التحوير حتى تضحي قادرة على الاضطلاع بجسيم المهام في ميادين الخلق والانجاز .

ولئن كان تصريف الافعـــال المعتلة في العربية ادقّ من تصريف الافعال السالمة ، فكذلك في الميدان الانساني؛ فان سياسة العقول المنحرفة اكدّ بما لايقاس من سياسة العقول السالمة . وقد انتبه لذلك الجاحظ في القديم حينما لاحظ انه ليس اكدّ على ذوي العقول من سياسة العوامّ . أليس معنى ذلك ان زعماء السياسة في الاقطار المتخلفة يجب ان يعتبروا ان العدة العقلية الوحيدة التي يعول عليها انما هي عدة الضمائر الحية اليقظى البصيرة الخيرة؟ هذه العدة هي النور الذي يجب ان يضيء كل اعمالهم وكل حركاتهم وكل اقوالهم ان كانوا يرغبون حقاً في بعث شعوبهم البعث المنشود . وليس يمكن ان يكون التوفيق الكامل نصيبهم ما لم يدركوا ان شأنهم بالضبط شأن المربي الاصيل مع الاجيال الفتية التي نريد

تربيتها ، نظراً الى ان مجتمعاتهم ليست في الحقيقة الا مدارس هائلة يجب تنظيم النشاط بها تنظيم نشاط العقول الراشدة سعياً وراء بلوغها الرشد .

والخطران الجسيمان اللذان يجب اجتنابهما في هـذا الصعيد ينحصران في اعتبارك ان القهر او الاكراه او الاستبداد من الامور الضرورية ، او في اعتبارك الانتصار للديمقراطية والعمـل باساليبها ضرورة . فمهما تكن غيرتك على الديمقراطية وعلى مبادئهـا وعلى وسائلها وعلى اساليبها فلا بدّ لك من الاعتراف بان شروطها من اعزّ الشروط . وما دامت هذه الشروط غير متوفرة فالالتجاء الى المبادىء الديمقراطية ليس يمكن ان ينتهي الا الى الديماغوجيـا والفوضى . وبدهي انه ليس بالقهر ولا في الفوضى يمكن لك ان توفر الاسباب الكفيلة بالانتهاء الى هذه الغاية النبيلة : ان تستشعر النفوس عزة الحرية ! واذاً فلا بدّ لك من التسليم بان السياسة الوحيدة التي تضمن للاقطار المتخلفة القرار المنشود انما هي سياسة حازمة يقظى عادلة ، تحرص الحرص كله على مراعاة نواميس تطور النفوس التطور الحسي السالم . ففي نطاق مثل هذا الجوّ السياسي ـ وفيه وحده ـ يمكن ان تزكّى العاطفة القومية على اكمل وجه .

النقطة السادسة والاخيرة: ان كنا بصدد استعراض الاصول العامة التي يجب الا نذهل عنها في شأن تزكية العاطفة القومية ، فليس يمكن لنا ان نتناسى اصلاً اشدّ تواضعاً في الظاهر ولكنه لايقل خطورة عن سائر الاصول : وهو اصل تربوي صرف . وينحصر هذا الاصل في ضرورة تغذية العاطفة القومية بنصوص ادبية او شعرية او تاريخيـة او فلسفية متخيرة منتقاة تدرّس في المدارس وتدرّج حسب درجات التعليم . ولا اريدها نصوص وعظ وارشاد ، وانما اريدها نصوصاً فنية جـذابة تغري النفوس اغراء الوحي والايحاء في حياة الابطال وفي تضحياتهم المرة النبيلة وفي اضطلاعهم الجهم بجسيم الامور وعظيم العزائم كي يسعد غيرهم . ولا بأس ان تكون دروس التاريخ تشير الى العبر من الاحداث الحاسمة التي كانت منعرجات بناء الذات في آلامها وفي افراحها وفي مجدها وفي انكسارها . فمثل هذه الدروس اقوى من ايّ ضرب من ضروب الوعظ او الارشاد او الدعاية . وليس بخاف ان موروث الوعظ وموروث الارشاد وحديث الدعـاية تنتهي دائماً الى عكس النتائج المطلوبة منها لما يحفّ بها من الضجر والسآمة وشكّ الوسواس وظلمة العصبية .